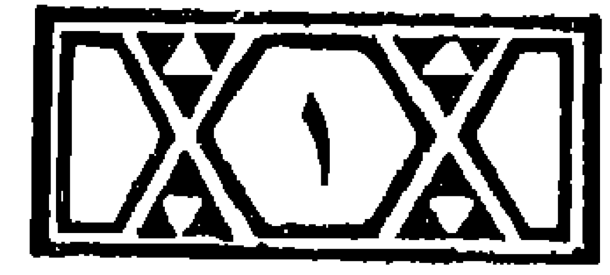
المجموعة التاريخية للصغار

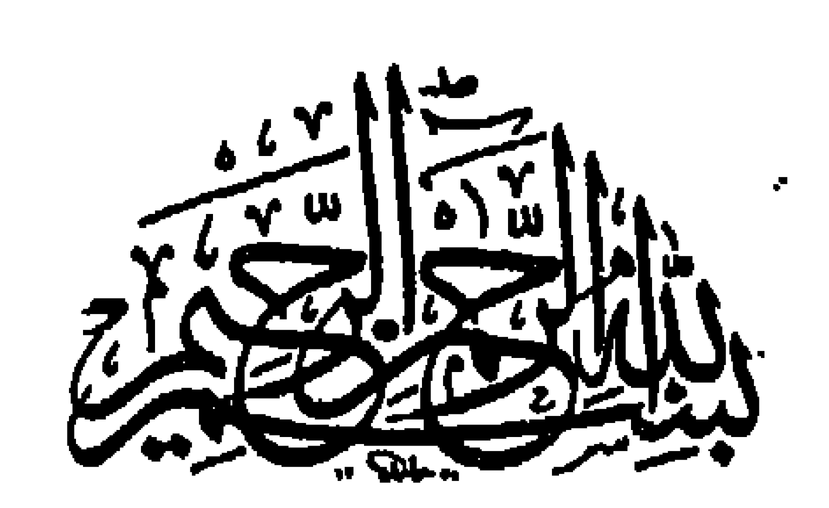
عجائب رحلة ابن بطوطة

الرمّال والعَمْود



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف : 2213129 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

رِحْلَةُ ابْنِ بَطُّوطَةَ

الشَّخْصِيَّاتُ التَّارِيخِيَّةُ الثَّابِتَةُ :

١ـ الرَّحَّالَةُ : مُحَمَّدُ أَبُو عَبْدِ الله شَمْسُ الدِّينِ ، ابْنُ بَطُّوطَةَ .

٢ـ السُّلْطَانُ : فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ الفَارِسِيُّ .

٣ـ كَاتِبُ السُّلْطَانِ : مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

العَجَائِبُ ١

الرَّمَّالُ وَالعَمُودُ

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو عِنَانٍ المَرِينِيُّ لِضَيْفِهِ أَبِي عَبْدِ الله مُحَمَّدِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ الطَّنْجِيِّ ، شَمْسِ الدِّينِ المَعْرُوفِ بِابْنِ بَطوطَةَ : هَاتِ حَدِّثْنَا بِأَخْبَارِ رِحْلَتِكَ العَجِيبَةِ مِنْ طَنْجَةَ إِلَىٰ الصِّينِ ، حَتَّىٰ عُدْتَ إِلَىٰ بِلَادِ المَغْرِبِ وَجِئْتَنِي فِي مَدِينَتِي (فَاسْ) ، وَخُصَّنِي بِالتُّحَفِ وَالغَرَائِبِ وَالعَجَائِبِ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلَايَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ الكَلْبِيِّ :

وَأَنْتَ دَوِّنْ فِي سِجِلِّكَ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ تَدْوِينَهُ مِنْ كَلامِ هَذَا الرَّجُلِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

أَمْرُكَ مُطَاعٌ يَا سَيِّدِي .

وَتَقَدَّمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ قَائِلاً :

كَانَ خُرُوجِي مِنْ مَسْقَطِ رَأْسِي طَنْجَةَ فِي الثَّانِي مِنْ شَهْرِ رَجَبَ عَامَ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، مُفَارِقاً وَطَنِي مُفَارَقَةَ الطُّيُورِ لأَعْشَاشِهَا . وَكَانَ وَالِدَايَ عَلَىٰ قَيْدِ الحَيَاةِ ، لَقِيَا مِنْ أَلَمِ الفِرَاقِ مَا لَقِيتُ ، وَسِنِّي لَمْ تُجَاوِزْ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً .

وَصَلْتُ إِلَىٰ تِلْمسَانَ مُنْفرِداً ، وَرَافَقْتُ بَعْضَهُمْ إِلَىٰ مَدِينَةِ الجَزَائِرِ ، ثُمَّ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ بِجَايةَ . وَفِي بِجَايَةَ أَصَابَتْنِي الحُمَّىٰ ، وَأَصْرَرْتُ عَلَىٰ مُوَاصَلَةِ الرِّحْلَةِ عَلَىٰ نِيَّةٍ حَسَنَةٍ وَهِيَ : إِنْ قَضَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيَّ بِالمَوْتِ فَلْيُتِمَّ قَضَاءَهُ وَأَنَا قَاصِدٌ أَرْضَ الحِجَازِ وَذَلِكَ أَجْزَلُ ثَوَاباً ، لأَنَّ الأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ .

وَسِرْنَا إِلَىٰ أَنْ وَصَلْنَا مَدِينَةَ قَسنْطِينَةَ ، وَوَافَقَ وُصُولَنَا نُزُولُ مَطَرٍ غَزِيرٍ

وَفِي الغَدِ تَلَقَّانَا حَاكِمُ المَدِينَةِ فَأَهْدَانِي ملْبَساً وَنَفَحَنِي بِدِينَارَيْنِ مِنْ الذَّهَبِ .

بَلَغْنَا تُونُسَ وَقَدْ أَظَلَّنَا عِيدُ الفِطْرِ فَحَضَرْتُ صَلاَةَ العِيدِ ، وَقَد احْتَفَلَ النَّاسُ وَبَرَزُوا فِي أَجْمَلِ هَيْئَةٍ .

وَبَعْدَ مُدَّةٍ تَعَيَّنَ لِرَكْبِ الحِجَازِ شَيْخٌ يُعْرَفُ بِأَبِي يَعْقُوبَ السُّوسِيِّ وَقَدَّمَنِي فِي المَوْكِبِ قَاضِياً .

وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ صَفَاقِسَ ، ثُمَّ إِلَىٰ مَدِينَةِ قَابُسَ وَفِي قَابُسَ ، حَجَزَنَا المَطَرُ عَشْرَ لَيَالٍ ،وَقَدْ تَوَالَىٰ دُونَ انْقِطَاعٍ .

ثُمَّ خَرَجْنَا مِنْ مَدِينَةِ قَابُسَ قَاصِدِينَ طَرَابُلُسَ .وَكُنَّا نَخْشَىٰ قُطَّاعَ الطُّرُقِ مِنَ الأَعْرَابِ ، فَاسْتَصْحَبْنَا فِي بَعْضِ المَرَاحِلِ مِائَةَ فَارِسٍ فِيهِمْ عَدَدٌ مِنَ الرُّمَاةِ . وَبَدَا أَنَّ قُطَّاعَ الطَّرقِ قَد اسْتَهَابُوا مَوْكِبَنَا وَحَذِرُوا الخُرُوجَ فِي وَجْهِنَا ، وَعَصَمَنَا الله مِنْهُمْ .

كُنَّا نُغِذُّ السَّيْرَ مُسْرِعِينَ ، وَنَحْنُ فِي أَوَائِلِ ذِي الحِجَّةِ مِنْ عَامِ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِئَةٍ . وَكَانَ أَمَلُنَا بُلُوغَ طَرَابُلُسَ فَجْرَ عِيدِ الأَضْحَىٰ فِي العَشْرِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ . وَلَكِنَّ العِيدَ أَظَلَّنَا فِي بَعْضِ مَرَاحِلِ الطَّرِيقِ وَلَمْ نَبْلُغْ طَرَابُلُسَ ، إِلاَّ فِي رَابعِ أَيَّامِ العِيدِ .

بَعْدَ أَنْ وَصَلْنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ ، أَقَمْنَا بِهَا مُدَّةً ، وَشَهِدْنَا مَدْخَلَ عَامٍ جَدِيدٍ ، هُوَ عَامُ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَفِي أَوَاخِرَ شَهْرِ المُحَرَّمِ ، خَرَجْتُ مِنْ طَرَابُلُسَ عَلَىٰ رَأْسِ جَمَاعَتِي وَقَدْ رَفَعْتُ العَلَمَ . وَتَقَدَّمْتُ عَلَيهِمْ نَحِيدُ عَنْ طَرِيقِ العَرَبِ خَشْيَةَ الإِيقَاعِ بِنَا ، إِلَىٰ أَنْ صَرَفَتْهُمْ عَنَّا قُدْرَةُ اللهِ جَلَّ جَلاَلُهُ ، وَتَجَاوَزْنَا مَسْرَاتَةَ وَقُصُورَ سَرْتَ إِلَىٰ قَصْرِ بَرْصِيصَا العَابِدِ . وَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ يَطْلُبُ مَدِينَةَ(فَاس) فِي المَغْرِبِ ، وَكَانَتْ مَعَهُ ابْنَتُهُ وَقَدْ رَأَىٰ مَا رَأَىٰ مِنْ وَجَاهَتِي فِي جَمَاعَتِي فَزَوَّجَنِي مِنْهَا ، وَدَخَلْتُ بِهَا بِقَصْرٍ يُعْرَفُ بِقَصْرِ الزَّعَافِيَةِ ، وَاحْتَفَلْتُ بِذَلِكَ فَأَقَمْتُ وَلِيمَةً لِلْقَوْمِ وَأَطْعَمْتُهُمْ جَمِيعاً ، وَبَاتُوا لَيْلَةَ الفَرَحِ مِنْ حَوْلِنَا .

وَأَخَذْنَا وِجْهَتَنَا إِلَىٰ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ حَتَّىٰ وَصَلْنَاهَا بَعْدَ ثَلاَثَةِ أَشْهُرٍ فِي أَوَّلِ جُمَادَىٰ الأُولَىٰ .

أَمَّا عَنِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ أَبَا عِنَانٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّهَا الثَّغْرُ المَحْرُوسُ ، والقُطْرُ المَأْنُوسُ ، عَجِيبَةُ الشَّأْنِ فِي البُنْيَانِ ، ذَاتُ تُحْسِينٍ وَتَحْصِينٍ وَإِحْصَانٍ . جَمَعَتْ مَبَانِيهَا بَيْنَ الضَّخَامَةِ وَالإِحْكَامِ ، وَتَحَدَّثَ فِي عَجَائِبِهَا الأَنَامُ . وَهِيَ مَرْسَىً عَظِيمٌ لِلسُّفُنِ ، لَهَا أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ هِيَ : بَابُ السِّدْرَةِ المُؤَدِّي إِلَىٰ المَغْرِبِ ، وَبَابُ رَشِيدٍ فِي مُقَابَلَتِهِ ، وَبَابُ البَحْرِ ، وَالبَابُ الأَخْضَرِ وَلَيْسَ يُفْتَحُ إِلاَّ يَوْمَ الجُمُعَة ، لِيَخْرُجَ النَّاسُ مِنْهُ لِزِيَارَةِ القُبُورِ . وَلَمَّا كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ بِمَنَارِهَا العَظِيمِ ، خَرَجْتُ لِزِيَارَتِهِ وَهُوَ عَلَىٰ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ فِي بَرٍّ مُسْتَطِيلٍ يُحِيطُ بِهِ البَحْرُ مِنْ ثَلاَثِ جِهَاتٍ .

أَمَّا قِوَامُهُ فَبِنَاءٌ مُرَبَّعٌ ذَاهِبٌ فِي الهَوَاءِ ، وَبَابُهُ مُرْتَفِعٌ عَلَىٰ الأَرْضِ بِعَرْضِ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ شِبْراً ، وَدَاخِلَهُ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ ، وَدَاخِلَ البَابِ مَوْضِعٌ لِجُلُوسِ حَارِسٍ لَهُ بِأَمْرِ السُّلْطَانِ .

وَبِمُرُورِ الأَعْوَامِ اسْتَوْلَىٰ عَلَيْهِ الخَرَابُ فَلَمَّا قَصَدْتُهُ عِنْدَ عَوْدَتِي إِلَىٰ بِلاَدِ المَغْرِبِ ، عَامَ خَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَجَدْتُهُ لاَ يُمْكِنُ دُخُولُهُ وَلاَ الصُّعُودُ إِلَىٰ بَابِهِ . وَقِيلَ لِي إِنَّ المَلِكَ النَّاصِرَ ـ رَحِمَهُ الله ـ قَدْ شَرَعَ فِي بِنَاءِ مَنَارٍ مِثْلِهِ ، وَحَالَ المَوْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَأْرَبِهِ ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ .

وَاعْلَمْ يَا سَيِّدِي أَنَّ مِنْ عَجَائِبِ مَدِينَةِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ عَمُودُ الرُّخَامِ الهَائِلُ الَّذِي يَقَعُ خَارِجَ أَسْوَارِهَا ، وَأَهْلُهَا يَعْرِفُونَهُ بِعَمُودِ السَّوَارِي لأَنَّهُ يَفُوقُ السَّوَارِيَ ارْتِفَاعاً ، كَمَا يَسْمُو عَلَىٰ الأَشْجَارِ ، وَمَعَالِمِ البُنْيَانِ الأُخْرَىٰ ، وَيَقَعُ مُتَوَسِّطاً لِغَابَةٍ مِنَ النَّخِيلِ وَهُوَ قِطْعَةٌ وَاحِدَةٌ ضَارِبَةٌ فِي عُمْقِ الأَرْضِ عَلَىٰ قَوَاعِدَ مِنَ الحِجَارَةِ مُرَبَّعَةٍ ، تُشْبِهُ الدَّكَاكِينَ العَظِيمَةَ . وَلاَ يَعْرِفُ المُتَأَمِّلُ مِنَّا كَيْفَ وَضَعَتْهُ الأَيْدِي فِي هَذَا المَكَانِ كَمَا لاَ يَعْرِفُ أَهِيَ مِنَ الإِنْسِ أَمْ مِنَ الجِنِّ ! . .

إِنْعَقَدَتْ الدَّهْشَةُ عَلَىٰ وَجْهِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَلِسَانِهِ ، وَهَمَّ أَنْ يَقُولَ

شَيْئاً وَهُوَ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ رِوَايَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ عَنْ إِحْدَىٰ عَجَائِبِ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَتَدَخَّلَ كَاتِبُهُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ قَائِلاً :

ـ أَعْرِفُ يَا مَوْلاَيَ السُّلْطَان عَنْ عَمُودِ السَّوَارِي الذِي ذَكَرَهُ ابْنُ بَطُّوطَة خَبَراً هُوَ مِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ ، فَإِذَا شِئْتَ أَخْبَرْتُكَ بِمَا عَرَفْتُ . . . .

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ أَبُو عِنَانٍ صَاحِبُ فَاسَ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزَيٍّ : أَخْبَرَنِي بَعْضُ أَشْيَاخِي أَنَّ أَحَدَ الرِّجَالِ الدُّهَاةِ ، كَانَ قَدْ احْتَرَفَ الشَّعْوَذَةَ وَالضَّرْبَ بِالرَّمْلِ ، قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَىٰ أَعْلَىٰ ذَلِكَ العَمُودِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَكِنَانَتُهُ ، وَاسْتَقَرَّ فِي أَعْلاَهُ ، حَتَّىٰ شَاعَ خَبَرُهُ ، وَاجْتَمَعَ جُمْهُورٌ جَمٌّ غَفِيرٌ لِمُشَاهَدَتِهِ ، وَقَدْ طَالَ بِهِمُ العَجَبُ ، وَطَارَ بِأَلْبَابِهِمْ فَتَأَوَّلُوا فِيهِ ، وَتَقَوَّلُوا فِيهِ الأَقَاوِيلَ ، وَخَفِيَ عَلَيْهِمْ وَجْهُ احْتِيَالِهِ .

قَالَ الأَمِيرُ أَبُو عِنَانَ الفَاسِيُّ وَقَدْ جَذَبَهُ حَدِيثُ كَاتِبِهِ ابْنُ جُزَيٍّ عَنِ الرَّمَّالِ صَاحِبِ العَمُودِ .

ـ حقاً ، مَا وَجْهُ احْتِيَالِهِ ، وَهَلْ أَطْلَعَكَ أَشْيَاخُكَ عَلَىٰ مَآلِهِ . . ؟

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ :

مَهْلاً عَلَيَّ يَا مَوْلاَيَ ، وَسَأَقُصُّ عَلَيْكَ جَمِيعَ خَبَرِهِ وَأَضَافَ :

أَمَّا عَنْ كَيْفِيَّةِ احْتِيَالِهِ فِي صُعُودِهِ إِلَىٰ ذِرْوَةِ العَمُودِ فَقَدْ عُلِمَ أَنَّهُ قَدْ رَمَىٰ رَأْسَ العَمُودِ بِنَشَّابَةٍ قَدْ عَقَدَ فَوْقَهَا خَيْطاً طَوِيلاً ، وَعَقَدَ بِطَرَفِ الخَيْطِ حَبْلاً وَثِيقاً ، فَلَمَّا تَجَاوَزَتِ النَّشَّابَةُ أَعْلَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ جِهَةٍ مُعْتَرِضَةٍ وَقَعَتْ إِلَىٰ الجِهَةِ المُوَازِيَةِ لِلرَّامِي ، فَصَارَ الخَيْطُ مُعْتَرِضاً عَلَىٰ أَعْلَىٰ العَمُودِ ، فَجَذَبَهُ رَامِيهِ حَتَّىٰ تَوَسَّطَ الحَبْلُ رَأْسَ العَمُودِ مَكَانَ الخَيْطِ فَأَوْسَطَهُ مِنْ إِحْدَىٰ الجِهَتَيْنِ فِي الأَرْضِ ، وَتَعَلَّقَ بِهِ بِتَمَكُّنٍ وَتَشَبُّثٍ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَىٰ ، وَمَا زَالَ يَصْعَدُ وَيَرْتَقِي حَتَّىٰ اسْتَقَرَّ بِهِ جُهْدُهُ الجَهِيدُ فِي ذِرْوَةِ العَمُودِ ، وَجَذَبَ إِلَيْهِ جَمِيعَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ حِيلَتِهِ . وَقَعَدَ عَلَيْهِ ، وَخَبَّأَهُ بِمِقْعَدَتِهِ ، حَتَّىٰ خَفِيَ أَمْرُهُ وَتَدْبِيرُهُ عَلَىٰ النَّاسِ ، وَازْدَادُوا فِي أَمْرِهِ عَجَباً .

قَالَ السُّلْطَانُ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ ، أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ مُتَسَائِلاً بِأَقْصَىٰ اهْتِمَامٍ :

وَمَاذَا عَنْ مَآلِ ذَلِكَ الرَّمَّالِ المُحْتَالِ ؟

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَاتِبُ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ عَاجِلاً ، بِمَا آلَ إِلَيْهِ الرَّمَّالُ المُحْتَالُ المُسْتَقِرُّ عَلَىٰ عَمُودِ السَّوَارِي .

قَالَ أَبُو عَبْدِ الله ، شَمْسُ الدِّينِ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ لَيْتَكَ تَفْعَلُ ، جَزَاكَ الله خَيْراً . .

قَالَ مَحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ الكَلْبِيُّ رَاوِي الخَبَرِ الأُعْجُوبَةِ عَنْ أَشْيَاخِهِ :

اِعْلَمْ يَا مَوْلَايَ السُّلْطَان . . أَنَّ الرِّمَالَةَ وَالشَّعْوَذَةَ ضَلَالٌ فِي ضَلَالٍ ، إِذْ لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلَّا الله ، وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ . وَقَدْ تَوَهَّمَ هَذَا الرَّمَّالُ المُشَعْوِذُ أَنَّهُ سَيَبْلُغُ كَرَامَةَ الأَوْلِيَاءِ المَرْضِيِّينَ بِمَا صَنَعَ ، وَقَدْ غَابَ عَنْ حُسْبَانِهِ أَنَّهُ مُشَعْوِذٌ دَجَّالٌ هَمُّهُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَجَمْعُ المَالِ ، إِذْ كَانَ يَأْمُرُ مَنْ يَسْتَشِيرُهُ فِي أَمْرٍ لَهُ خَطِيرٍ ، أَنْ يُودِعَ فِي حُفْرَةٍ حَوْلَ

العَمُودِ صُرَّةً مِنَ الدَّنَانِيرِ . وَكَانَ يَتَحَمَّلُ الجُوعَ وَالعَطَشَ وَالمَحْصَرَ كَمَا لاَ تَتَحَمَّلُ الجِمَالُ وَالحَمِيرُ .

وَكَانَ يَتَسَلَّلُ إِلَىٰ مَخْدَعِهِ تَسَلُّلاً ، لاَ يَجْرُؤُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِلاَّ بَعْدَ خُلُوِّ المَكَانِ حَوْلَهُ مِنْ كُلِّ رَاكِبٍ وَرَاجِلٍ وَعَابِرِ سَبِيلٍ ، وَكَانَ يَجْمَعُ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ لِيَطْمُرَهَا تَحْتَ الأَرْضِ بِجِوَارِ مَأْوَاهُ الحَقِيرِ . وَقَدْ سَاقَتْ إِلَيْهِ الشُّهْرَةُ ، وَالاعْتِقَادُ الخَاطِىءُ بِصَوَابِ تَنَبُّؤَاتِهِ إِلَىٰ حِينٍ لَمَ يَطُلْ ، سَاقَتْ إِلَيْهِ ثَرْوَةً عَنْ طَرِيقِ البُسَطَاءِ المَخْدُوعِينَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَضَاعَهَا بِغَبَائِهِ وَتَفْرِيطِهِ وَشِدَّةِ طَمَعِهِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ يَا بْنَ جُزِّيٍّ ، دَعْ ذَا وَخَبِّرْنَا بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيْهِ الرَّمَّالُ صَاحِبُ العَمُودِ . .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ :

ـ كَمَا يَشَاءُ مَوْلاَيَ السُّلطانُ وَاسْتَرْسَلَ ابْنُ جُزِّيٍّ فِي حَدِيثِهِ قَائِلاً :

بَلَغَنِي أَيُّهَا السُّلْطَانُ المُطَاعُ أَنَّ الرَّمَّالَ المُحْتَالَ صَاحِبَ العَمُودِ بَعْدَ أَنْ بَهَرَ الأَنْظَارَ وَشَغَلَ الأَفْكَارَ وَصَارَ حَدِيثاً لِلْقَاصِي وَالدَّانِي مِنْ أَهَالِي الإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا ، اسْتَبَدَّ بِهِ الغُرُورُ وَالطَّمَعُ وَصَارَ يَبِيعُ الرُّقَىٰ وَالرُّقَعَ يُلْقِيهَا لِمُشْتَرِيهَا مِنْ أَعْلَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ أَسْفَلِهِ مُقَابِلَ أَنْ يَتَخَلَّىٰ عَنْ مِقْدَارٍ مِنَ الدَّنَانِيرِ فِي كِيسٍ لِلرَّجُلِ المَكَّارِ ، دُونَ أَنْ يَجْرُؤَ أَحَدٌ عَلَىٰ الطَّمَعِ فِيهِ خَشْيَةَ أَنْ يُصِيبَهُ مَكْرُوهٌ أَو أَنْ تَحِلَّ عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ .

وَذَاتَ مَرَّةٍ تَطَاوَلَ الرَّمَّالُ المُشَعْوِذُ يَسْتَقْصِي النَّظَرَ إِلَىٰ مَا جَمَعَ مِنَ المَالِ مِنْ أَقْصَىٰ العَمُودِ إِلَىٰ أَدْنَاهُ وَانْحَنَىٰ يَسْتَطْلِعُ الحَقِيقَةَ بِعَيْنَيْهِ وَعُنُقِهِ فَإِذَا بِهِ يَهْوِي إِلَىٰ الأَرْضِ مِنْ عَلٍ .

شُوهِدَتْ جُثَّةُ الرَّمَّالِ مَرْمِيَّةً فِي أَسْفَلِ عَمُودِ السَّوَارِي ، وَهُوَ يُعَانِقُ مَيْتاً كِيساً مِنَ الذَّهَبِ .

اكْتَشَفَ النَّاسُ بُطْلَانَ ادِّعَاءَاتِهِ بِالكَرَامَاتِ وَسَخِرُوا مِنَ المُحَلِّق ، فِي الأَعْلَىٰ كَيْفَ لَمْ يُنْقِذْ نَفْسَهُ مِنَ المَصْرَعِ الهَائِلِ . وَخَفِيَ عَلَىٰ النَّاسِ

وَالحُكَّامِ أَمْرُ ثَرْوَتِهِ المَخْبُوءَةِ تَحْتَ الأَرْضِ، فِي جَرَّةٍ كَبِيرَةٍ حَتَّىٰ قَيَّضَ القَضَاءُ وَالقَدَرُ لَهُ حَيَّةً تَسْعَىٰ، جَعَلَتْ تُسرِّبُ الدَّنَانِيرَ بِفَمِهَا مِنْ سِرْدَابٍ عَمِيقٍ إِلَىٰ ظَاهِرِ الأَرْضِ، فَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ خَبِيئِهَا المَكْنُونِ وَأَخْبَرَ بِهِ السُّلْطَانَ فَجَاءَ بِحَاشِيَتِهِ وَأَعْوَانِهِ لِلْفُرْجَةِ ولالْتِقَاطِ المُكْتَنَزِ مِنَ الدَّنَانِيرِ، دُونَ أَنْ يَكُونَ لِمُقْتَنِيهَا وَالحَرِيصِ عَلَيْهَا أَقَلُّ نَصِيبٍ فِيهَا.

قِيلَ: وَرَدَّهَا السُّلْطَانُ إِلَىٰ بَيْتِ المَالِ. وَظَلَّ النَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ بِسِيرَةِ الرَّمَّالِ الهَاوِي مِنْ فَوْقِ العَمُودِ أَسَابِيعَ وَشُهُوراً وَسِنِينَ وَبَقِيَتْ سِيرَتُهُ العَجِيبَةُ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ، وَهَكَذَا كَانَ..

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانَ:

ـ لاَ فُضَّ فُوكَ، يَا مُحَمَّدُ، يَابْنَ جُزِّيٍّ. وَرَغْبَتِي إِلَيْكَ أَنْ تُضِيفَ جَمِيعَ مَا قُلْتَهُ مَكْتُوباً إِلَىٰ حَدِيثِ أَبِي عَبْدِ اللهِ شَمْسِ الدِّينِ ابْنِ بَطُّوطَةَ، لِيَكُونَ حَدِيثُهُ أَجْمَعَ وَأَشَدَّ إِحَاطَةً، وَتَزْدَادَ بِهِ لِقُرَّائِهِ المُتْعَةُ وَالفَائِدَةُ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جُزِّيٍّ الكَاتِبُ:

ـ أَنْتَ يَا مَوْلاَيَ خَيْرُ مَنْ سَمِعَ الحَدِيثَ ، وَوَعَىٰ الخَبَرَ وَاعْتَبَرَ ، وَنُزُولاً عِنْدَ أَمْرِكَ لأَفْعَلَنَّ وَلأُضِيفَنَّ حِكَايَةَ الرَّمَّالِ الدَّجَّالِ إِلَىٰ صَمِيمِ حِكَايَاتِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَعَجَائِبِهِ المُعْجِبَةِ الطَّرِيفَةِ .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بطُّوطَةَ :

ـ نِعْمَ الرَّأْيُ رَأْيُ مَوْلاَيَ السُّلْطَانِ ، وَنَحْنُ كِلاَنَا فِي خِدْمَتِهِ وَطَاعَةِ أَوَامِرِهِ ، فَعَسَىٰ أَنْ نَحُوزَ مِنْهُ الرِّضَىٰ ، وَنَكُونَ لَدَيْهِ مِنَ المُقَرَّبِينَ .

هُنَا انْتَهَتْ حِكَايَةُ الرَّمَّالِ وَالعَمُودِ وَتَلِيهَا حِكَايَةُ التَّقِيِّ المُلْتَحِي مِنْ عَجَائِبِ ابْنِ بَطُّوطَةَ .



☆☆ ☆☆

☆